اللقاء الأوّل

حيث ندرك أن للسياسة دور بسيط جداً: ألا
وهو تنظيم الحياة المشتركة، وتنفيذ أمور
تعود بالفائدة على الجميع.

- إنهم يتوقعون من خلال لقاءاتنا هذه، أن نجيب على سؤال واحد فقط. سؤال صعب، ولكنه جوهري: «كيف توصلت الشعوب إلى لفظ السياسة؟» لن أجيب وحدي عن هذا السؤال، سنجتهد بمعالجته مجتمعين. سيساعد بعضنا الآخر. أرجو أن تبدأوا بالحوار... تفضلوا.

- **كلمة السياسة، تعني أشخاص يتبادلون الانتقادات.**

- هذا صحيح في الظاهر. ولكن يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك. فهؤلاء الناس لا يوجهون الانتقادات إلى بعضهم البعض لمجرد التسلية، ولا تتمحور حياتهم حول هذا الأمر. ولكنني أسلم أنك وجدت التعريف

الأكثر شيوعاً وقبولاً. هل لديكم تعاريف أخرى؟...

- السياسة هي مجموعة من الناس يتفاوتون في طريقة التفكير، ويبغون تغيير سياسة البلد، وتدور في خلدهم مشاريع كثيرة...
- أفضّل هذا الرأي. فالسياسة إذا سارت معكم في هذا الاتجاه، هي عبارة عن نشاط أناس يختلفون فيما بينهم، وفي بعض الأحيان، يتبادلون العبارات الجارحة، ولكن، في النهاية، يشتركون بهدف واحد: ألا وهو إصلاح أمور البلد والعمل على تغيير النظام فيه، لرفع مستوى معيشة افراده. إذا فهمت قصدكم جيداً، فالسياسة تشغل تفكير كل الناس في بلد ما... إنها مجموعة من القرارات، والأفعال التي تهم كل فرد فينا. ولكن يبقى سؤال مطروح: هل هذا كافٍ لتغطية كافة المشاكل التي تعترضنا؟ لنأخذ على سبيل المثال المكان الذي ستقضون فيه عطلتكم: لمن يعود أمر البتّ فيه؟

- **لأهلنا.**

- هذا جيد. فمن الذي يختار أثاث المنزل؟

- **الأهل**

- والسيارة؟

- **أيضاً الأهل.**

- إذاً، هناك خيارات تنفردون بتقريرها أنتم أو أهلكم. كيف يمكنكم أن تصفوا المشاكل التي تتخذون القرار فيها مع عائلتكم دون اللجوء إلى تدخل خارجي؟ لنبحث عن صفة أكثر ملاءمة... لقد اتفقنا أن السياسة تعني القضايا العامة. ما هو عكس كلمة «عام»؟

- **خاص.**

- جيد جداً. هناك أولاً مجال يمكن أن نسميه خاصاً، تخضع له مجموعة من القرارات. أكرر، اختيار مكان العطلة، اختيار موديل السيارة، أو حتى المكان الذي نعيش فيه، والمهنة التي نمارس... وطريقة اختيارنا للملابس... علماً أنه مرّت فترة من الزمن كان أمر اللباس المدرسي من اختصاص القطاع العام. لماذا؟ لأنهم كانوا يفرضون على الطلاّب ارتداء قميص. طبعاً توقف ذلك اليوم. يمكن أن نشير هنا إلى أن الخط الذي يفصل بين المجالين الخاص والعام يمكن أن يتطور بمرور الزمن... إذاً عندما تخرجون من شقتكم، أو من منزلكم، إلى أين تذهبون؟

- إلى الشارع.

- وهل الشارع ملك لكم لوحدكم؟

- **كلا، إنه ملك لعامة الناس...**

- هذا أمر مثير للإهتمام. لنلخّص الموضوع: السيارة، هي قضية عائلية. ولكنكم تعلمون أنه لولا وجود طريق معبّدة، لما كان هناك فائدة من اقتناء السيارة. لذلك فكل من يقتني سيارة سيهتم بتعبيد، أو بطلب تعبيد الشارع أو الطريق لاستخدامها. فالطريق لن تكون ملكاً لشخص معيّن، بل ملكاً للجميع. هذا ما يساعدنا على إدراك مبادئ الحياة الجماعية. فبدءاً من لحظة معينة، أحسّ الناس الذين كانوا يعيشون فرادى، بحاجتهم الماسة لتنظيم أنفسهم، بهدف تنفيذ أعمال مشتركة لم يكونوا ليتمكنوا من تنفيذها بمعزل عن الآخرين، حيث تبيّن لهم مدى فائدتها للجميع. هذا هو حال الشارع أو الطريق...

ولكن الموضوع لا يتوقف عند هذا الحد: فإذا بقينا في مجال الشارع أو الطريق. هل نستطيع أن نتخيّل سماع بعضهم يقول: «لقد قررنا السير على يمين الشارع»، بينما يقول الآخرون: «نحن نفضّل السير على يسار الطريق»؟ بالطبع، سيترتب عن ذلك أضرار جليلة، تطال

الجميع. لذا يجب تحديد اتجاه السير، وتعميم القرار الصادر بذلك على الجميع.

ونتيجة لذلك، سرعان ما شعر الناس بالضرورة الملحّة لتنظيم حياتهم المشتركة، حيث أن النظام لن يسود بينهم ما لم يمتثل الجميع لقواعد قابلة للتطبيق. فالنظام موجود على مستوى البلد، كما هو موجود في فصلكم أو على مستوى عائلتكم. ففي حال غياب الحد الأدنى من الانضباط، لن يكون هناك مجال لأية حياة اجتماعية، أو لأي عمل مثمر. وستعم الفوضى في كل مكان فيما لو أراد الناس التصرّف بحرية تامة وحسب أهوائهم.

ومن هنا نتوصل إلى مظهرين رئيسيين للعمل العام، أو إن شئتم، للسياسة: تنظيم الحياة المشتركة ضمن حدود النظام والترابط والأمان، من أجل التوصل إلى إمكانية العيش المشترك دون التسبب بإزعاج الآخرين، ومع الإبقاء على الاحترام المتبادل. ويتمثّل الهدف الآخر بمساعدة الذين يعانون من مشكلة ما: كالمعوقين، والمرضى، والمتقدمين في السن، ومن لا مورد لهم... وأخيراً أن نتمكّن مجتمعين، من إنجاز أعمال تعود بالنفع على الجميع، في حين أننا نعجز عن تحقيقها بمفردنا.

هل توصلت جميع البلدان إلى تنظيم حياتها ضمن المجتمع بشكلٍ مرضٍ، وإلى تحقيق أمور مشتركة هي في خدمة الجماعة؟

- **كلا.**

- أين نجد تلك البلدان على سبيل المثال؟

- **في أفريقيا.**

- نعم تماماً، حيث ما تزال الفوضى تسود في بعض الأحيان. بالإضافة إلى ذلك، نجد هناك أماكن عديدة ـ لا بد أنكم شاهدتموها على شاشة التلفاز ـ تنعدم فيها الخدمات العامة، ولا تزال الطرقات فيها ترابية، وتفتقر إلى المصارف التي تطرح المياه المستعملة. فما أن تهطل الأمطار حتى تنتشر المستنقعات في كل مكان. ولنحاول هنا أن نكون أكثر دقة: في البلدان التي تتوفّر فيها هذه الخدمات، من الذي نفذها وسدد تكاليفها؟

- **إنها الدولة.**

- وما هي الدولة بمفهومكم؟

- **إنها مجموعة من الناس.**

- تعريف جيد، مفهوم الدولة هو مجموع الأناس الذين

يعتقدون أن هناك أموراً يجب تنفيذها سوياً... سواء كان ذلك، أعيد وأكرر، على مستوى تنظيم الحياة الجماعية أو تسيير الأمور المشتركة... لنحاول إيجاد أمثلة تجسّد أقوالنا... لقد أدركنا جيداً أن القواعد التي يمكن تطبيقها على كل فرد لكي يتمكن من التعايش مع الآخرين دون خلاف، هي الأساس في تنظيم الحياة الجماعية. فمثلاً أن تمتنع بدءًا من ساعة معيّنة من الليل عن إحداث الضوضاء الذي يسبب أرقاً للآخرين. ولكن بالمقابل، ما هي الأمور التي تشترك بتنفيذها؟

- **المدرسة.**

- نعم، مثال جيد، يجب على الأطفال أن يتعلموا...

- **الكتابة والقراءة والحساب...**

- حيث كان من الصعوبة بمكان أن تهتم كل عائلة على حدة، برعاية الجانب التعليمي لأطفالها. هذا هو أمر العائلات الميسورة. لقد سمعتم عن الكونتيسة Ségur صوفي، الملقبة بكونتيسة «المصائب» كان لديها مدرّسة خاصة بها ... هذا أمر نادر الحدوث، فليس بمقدور كل الناس تعيين مدرّسٍ خاصٍ. فوجدوا أن تخصيص مدرّس واحد لمجموعة أطفال في نفس العمر، في مكان

واحد، هو الحل الأمثل والعملي. فقرروا إنشاء مدارس تستقبل مجموعة من الصبية والبنات. فمن يشيد هذه المدارس؟

- **إنها الدولة!**

- في الحقيقة، إنها المقاطعة. ولكن الدولة هي التي تلزمها بإنشائها. انتهينا من بناء المدارس. ما الذي ينقصها؟ ما الذي هم بحاجة إليه؟

- **يجب إعطاء المدرسين رواتبهم.**

- جيد جداً. يجب أن ألا ننسى ذلك. وماذا أيضاً؟

- **اللوازم.**

- حتماً اللوازم. كالكتب والطاولات والكراسي والسبورة والطباشير...

- **ومطعم المدرسة.**

- المطعم والكهرباء والتدفئة... حسناً عدا المدارس، هل يخطر في بالكم أمثلة أخرى؟

- **المفوضيات والمخافر.**

- نعم، إذ لا جدوى من إيجاد قواعد للحياة المشتركة إذا لم نستطع إلزام الجميع باحترامها. فالشرطة ورجال

الدرك موجودون لهذا الغرض. ولكن يجب إيواؤهم، وتقسيمهم إلى فرق، وصرف رواتب لهم.

- **هناك أيضاً المشافي.**

- نعم، حيث أن هناك أمراض تستوجب إجراء عمل جراحي. ولا يمكن لكل عائلة أن تبني مشفى خاصاً بها. فعندما نكون عرضة لمرض خطير، ونحتاج لإجراء عملية، نشعر بالارتياح حين نجد مشفى يستقبل الجميع دون تمييز. وماذا لديكم أيضاً؟

- **المتاحف.**

- أمر هام أيضاً. والـ. . .

- **البلديات.**

- حسناً، لنتابع سرد الأمثلة.

- **الثكنات.**

- نعم، الثكنات التي تؤوي الفيالق التي تشكّل الجيش. ما هو دور الجيش؟ الدفاع عن المدنيين إذا تعرّضوا لأي عدوان، علماً أن مهماته تطورت بشكلٍ كبير في الآونة الأخيرة. حيث أن قواتنا المسلحة باتت تشارك جيوش الدول الأخرى في محاولةٍ لإعادة النظام في مناطق من

العالم التي تعاني من الاضطراب (تذكروا حرب الخليج أو التطورات التي حدثت في يوغسلافيا السابقة) وكنتيجة لذلك، يمكننا القول أن الجيش الذي يدافع عنا هو في النهاية، منظّمة شعبية.

- **المحلات التجارية.**

- كلا، إذ أنها تُصنّف ضمن القطاع الخاص. ولكن لنقل أن تنظيم حركة البيع الذي يتم في المحلات التجارية هو أيضاً من الشؤون العامة. إذ لا يمكن أن نقبل على سبيل المثال، بيع منتجات مغشوشة.. لذا فإن الرقابة العامة تفرض نفسها هنا. هل سمعتم عن الدجاج المحضّر بالديوكسين؟

- **نعم، نعم، سمعنا عن ذلك...**

- أترون، يمكننا سرد الكثير من الأمثلة التي تتحدث عن تدخل المؤسسات العامة، والتي هي في النهاية شؤون سياسية... والآن، هناك سؤال هام جداً يجب طرحه: أين نجد الأموال الكافية لتغطية نفقات هذه الخدمات؟

- **من خلال الضرائب.**

- هذا جيد، لقد فهمتم كل شيء. نكتشف هنا تعبير هام جداً: الضريبة. فالضريبة هي مبلغ من المال يترتب على

كل فرد اقتطاعه من ميزانيته الخاصة أو العائلية، تبعاً لمستوى موارده، لكي يشارك في النفقات العامة. فالعمل السياسي الذي يأتي في المقدمة، والذي بدونه لا يمكن تنفيذ أي شيء، هو أن نطلب من الناس دفع مبلغٍ من المال، حتى لو اضطر الأمر لإلزامهم بذلك. وعلى كل حال، عندما نمعن التفكير في الأمر، فإننا ندرك الهدف الأول الذي أُوجدت المجالس لأجله. وهذا ما يفسّر كون النظام في بلدنا جمهورياً. سأحاول أن أشرح لكم السبب. لقد نشأت فكرة الديموقراطية في اليونان منذ أمد بعيد. ولكن بلداً أوروبياً هاماً أحيا هذه الفكرة خلال القرون المنصرمة. هل يستطيع أحدكم أن يذكر اسم هذه الدولة؟

- **إنها إنكلترا.**

- إنها فعلاً بريطانيا، التي نطلق عليها أحياناً لقب «أم المجالس». أما لماذا أُوجد المجلس ببريطانيا في وقت مبكر جداً؟ فذلك يعود لسبب بسيط جداً: ألا وهو أن ملك تلك البلاد كان بحاجة للمال. إذ أنه كان يقتطع المال من الشعب دون تدبير ودون الرجوع إلى رأي أحد. ثم، وبعد فترة من الزمن، ظهر ما سمي بالطبقة البورجوازية، التي تضم المنتجين والتجّار، الذين بدأ

نفوذهم يزداد. فأبدوا استياءهم من الاستغلال، وقالوا: «نفضّل أن يسألنا الحكام بلطفٍ ماذا نريد أن نعطي، وأن يبيّنوا لنا إلى أين يذهب هذا المال» واضطر الملك مع الوقت، إلى قبول ذلك الإجراء. وطُبق هذا في بلدنا فيما بعد... أعتقد أنكم اطلعتم في الكتب على الثورة الفرنسية. من الذي أشعل فتيلها الأول، عن غير قصد؟

- **إنه الملك لويس السادس عشر.**

- عندما قرر إيجاد هيئة سياسية، تشبه في تنظيمها مجلس الشعب البريطاني والذي يسمى بال...

- **الإدارات العامة.**

- الإدارات العامة. أرى أنكم تتمتعّون بذاكرة قوية. ولِمَ الدعوة إلى هذا التنظيم؟ لأنه هو نفسه ـ أي الملك ـ كان بحاجة إلى المال! وعلى كل حال فرئيس وزرائه كان صاحب مصرف، وكان يقدّر خطورة الموقف من خلال مركزه. وكان يدعى «نيكر» Necker.

- **نعم Necker لقد قرأنا عنه.**

- ولذا، تمّ إحضار أناس من كل الطبقات في فرنسا، للمشاركة في الإدارات العامة، وحين وصلوا إلى

مراكزهم، أعلنوا أنهم سيتكلمون عن الأموال، ولكن لن يتمحور حديثهم عن المال فقط. وتدهورت الأحوال. إنها قصة أخرى. ويبقى اليوم في مقدمة أنشطة الهيئات العامة ومجالس الأمة موضوع «التصويت على الضريبة».

- **ولكن يا أستاذ، ما هو تعريف ضريبة الرفاهية؟**

- إنها شكل من أشكال الضرائب التي تفضّل الحكومة والهيئات السياسية ترويجها، لأن عامة الشعب لا تدرك أنها تسددها. لا بد أنكم رأيتم أهلكم يملؤون استمارات تصاريح عائداتهم... وفي عدة مرات من العام يضطرون لدفع مبالغ من المال: وهذا أمر شاق ومؤلم بالنسبة لهم. في حين أنهم عندما يبتاعون المحروقات، أو يشاركون في اليانصيب، أو الرهان المثلث، أو عندما يشترون السجائر، فإن الدولة ستقتطع الضرائب على قيمة هذه الأشياء دون أن يدركوا ذلك. وبالتالي فإنهم لن يشتكوا... وعلى كل حال، فإن الضرائب، ورسوم الرفاهية تساهم أيضاً في تسديد نفقات الدولة. ويتم تقدير مستوى نفقات الدولة في كل عام على حدة. عندئذ، يقول بعض الناس: يجدر بنا أن نقلل من شق الطرقات، و أن نحد من تشييد المدارس والمستشفيات

لكي نخفض قليلاً من نسبة الضرائب المفروضة علينا. بينما يقول البعض الآخر على العكس من ذلك: «يجب ألاّ تجري الأمور على هذا النحو، حتى لو أبدى الناس استياءهم، يجب فرض المزيد من الضرائب عليهم، من أجل شق المزيد من الطرقات، وبناء عدد أكبر من المستشفيات، أو لزيادة عدد رجال الشرطة. وماذا نطلق على هذا الحوار؟ إنه حوار...

- ... **سياسي**

- نعم، ويدور محور النقاش السياسي بصورة خاصة، حول موضوع الضريبة، وكيفية توظيفها... ولهذا عندما نصف السياسة بأنها أمر سيء، أو غير مفيد، فإننا نخطئ تماماً. لأننا لو لم نكن نؤمن بضرورة وجود السياسة، فسيقودنا ذلك إلى عدم الإيمان بضرورة وجود وسائط النقل العام، والمستشفيات، والمدارس، ورجال الشرطة، وعمال البريد... في حين أننا بأمس الحاجة لتلك الخدمات. والأفضل أن نناقش الأمر سوية ... حيث أن هناك طرقاً عديدة ـ غالباً ما تكون متناقضة ـ لمعالجة المشكلة نفسها. لقد أثرنا موضوع الأمن منذ قليل... أمام مواقف الاعتداء هناك من يقول: يجب تفهّم ومساعدة وتنظيم الطرق الوقائية... حيث أننا لن

نستطيع تسوية الأمور بالقمع فقط، فنحن نحتاج أيضاً إلى تجهيزات: كالملاعب، والمعاهد الرياضية لكي تهدأ الأمور. ويجيب بعض الناس: «أوقفوا مشاكلكم بماء الورد... ما يلزمنا هو رجال أمن عديدون ومفتولي العضلات لحفظ النظام». فالخيار مفتوح، كما ترون، والموضوع ليس بالبسيط. نعم فكل تلك الأمور تندرج تحت لواء كلمة السياسة. لا يجدر بنا الوقوف عند ظاهرة الأمور الخدّاعة والبرّاقة. لأننا في مجتمع ديمقراطي، فالشؤون السياسية تبقى موضوع نقاش دائم، وضروري لا جدل فيه. فكل فرد، وكل حزب، وكل مسؤول عام لديه حلول يحاول الدفاع عنها وترويجها... وعندئذ تنشأ الانزلاقات. فعلى هذه الانزلاقات تُسلّط الصحافة أضواءها، لأنها أمور مذهلة. ولكن الانطباع الذي يقدّم غالباً ما يكون مشوهاً. وعلى كل حال، يجب ألا يخل بتوازن الأمور الجوهرية.

- **هل الحياة السياسية متوترة دوماً؟ كيف تسير الأمور أثناء الانتخابات؟**

- تتوتر الأمور بشكلٍ خاص خلال الانتخابات، عندما تغيب القائمة وتنحصر في شخص واحد. فالأمر هنا يشبه الصراع من أجل البقاء. ويصل بنا الأمر إلى

مواجهة مشكلة جديدة: هناك أناس يمارسون الضغوط للفوز بالانتخابات، ويستلمون المسؤوليات السياسية ويعتقدون أن السياسة هي مهنة كغيرها. وأنهم يمتلكون الموهبة الكافية لممارسة هذه الوظيفة طيلة حياتهم. بينما يختلف مفهوم السياسة عن ذلك . فهي تعني خدمة الآخرين. إنها مثلٌ أعلى. فمن الطبيعي إذاً أن نجد أنفسنا نتلقى مكافآت عند ممارستنا للسياسة، لأننا لا نمتلك الوقت الكافي لممارسة مهنة أخرى. . . ومع ذلك ـ الأمر الذي نتناساه في أغلب الأحيان ـ لا يحق لنا أبداً أن نحترف السياسة. فممارسة السياسة تعني المشاركة في نقاش، تنتج عنه قرارات هي في مصلحة العامة. . .